رحلة موحشة

قبل أن يركب سيّارة الأجرة المتجهة إلى العقبة.. قال للسائق:

– معي ملف أريد أن أضعه في استعلامات التلفزيون.. فهل تأذن لي بدقيقتين تقف فيهما السيارة قرب التلفزيون.. لأضع الملف هنا؟.

قال السائق بملامح تخلو من تعبير ما!.

– خذ موافقة الركاب.

أطّل من شباك السيارة وحيّا الجميع ثم عرض عليهم الأمر قال شاب في العشرين:

– أنا على عجل، لا أستطيع أن أتأخّر..

قال رجل في الأربعين يبدو من مظهرة أنه عامل باليوميّة:

– لا تنكد على السائق والركّاب يا أستاذ..

استاء الرجل، تحير في الأمر، كاد أن ينصرف لولا أن خاطبه شباب في حدود الثلاثين من العمر، يلبس بذلة وربطة عنق:

– توكل على اللّه، اركب ننتظرك دقيقتين..

هنا قال له السائق، مقطباً بين حاجبيّه:

– تدفع ربع دينار مقابل الوقوف..

هز الأستاذ رأسه موافقاً، وهو موظّف في وزارة السياحة. مع أنه في الأربعين، وعليه سيما الوقار،، غير أنه أوصل الملف هرولة وعاد هرولة، لكيلا يتذمر الركاب أو يوجه أحدهم ملاحظة تؤذيه..

استأنفت السيارة سيرها.. وساد الصمت، كلٌّ انشغل بنفسه يحدثها.. الأستاذ.. في سرّه «متى يتمّ نقلي من استراحة الكرك إلى استراحة العقبة؟ في العقبة.. أكون عند أهلي، وربّما وجدت عملاً إضافياً. قبل ثلاث سنوات وعدني معالي الوزير! نعم، هو معالي الوزير رغم كل شيء!! وعدني بالنقل إلى العقبة في أقرب فرصة، لكنّ الفرصة لم تأتِ بعد!! فارق الوزارة قبل أن تأتي الفرصة، وحلّ محله صاحب معالٍ جديد.. الكذاب.. جاملني وتبسّط معي وودعني إلى الباب، ولكنه لم يفِ بوعده! «يعطيك من طرف اللسان حلاوة..»، ومما يجلب الحنق أن ليس هذا أسلوبه من الجميع.. بالعكس.. أصدقاؤه في الوزارة ومن هم من شلته أعطى بعضهم علاوات غير استحقاق ورقّى بعضهم إلى مراكز لا يستحقونها.. ولكنه أقصى بعض من لا يحب وجمدّ بعضهم – وأنا منهم – وقاعد آخرين.. وزير «لمفاوي» لا يشعر بالسعادة إلا أذا أحدث تغيراً في الوظائف ومن يشغلونها كل شهر.. يتوق إلى أن يشعر به الناس شعوراً قوياً، أن يرهبوه على نعومة ملمسة، وأن يظل حاضراً في أذهانهم وأنفسهم، يقتطع..

وقتاً كبيراً من زمن كل موظف للحديث عنه كل يوم.. ماذا قال، وماذا فعل، ماذا أجرى من تغيرات.. عندما جاء إلى الوزارة قبل ثلاث سنوات استبشرت خيراً، رجل مجرّب – قلت في نفسي، وتحدثت لأصدقائي – لابدّ أنه أدرك من تجاربه السابقة أن تغيير مواقع الأشخاص ليس تغييراً، وإنما التغيير هو تغيير الأفكار.. لذلك: أعتقد أنه في هذه المرة – هكذا كنت أقول لن يوجه عنايته إلى الأشخاص وإنما يوجهها إلى الأفكار.. مثلاً: سيكّون لجنة يشرف عليها، تقوم بتأليف كتاب عن تاريخ الأردن منذ مملكة عمون إلى أيامنا الحاضرة.. فيقرأه الأردني فيزداد حباً لبلده وتعلقاً به، ويقرأه السائح الأجنبي الذي يوجه له هذا الكتاب.. أصلاً فيحترم عراقة هذه الديار.. لقد مرّت عليها أمم شتّى، تركت آثارها فيها، حتى جاء الإسلام فنفخ فيها روحاً حضارية فكريّة، وأقام العدل في ربوعها، وجعل كلمة اللّه هي العليا.. ثم جاء العصر الحاضر فعاد لها رونق الماضي بما وهبه لها تيار الحضارة الذي امتدّ إلى جميع أمم الأرض في هذه الأيام على تفاوت، لأن حضارة اليوم قامت على مواصلات واتصالات سريعة، جعلت ما بشرق الأرض سرعان ما ينتقل إلى غربها، والعكس صحيح... سيأمر بأن يطبع من هذا الكتاب مئات الآلاف من النسخ، ليكون في يد كل مواطن قادر على القراءة نسخة، ويكون في يد كل أجنبي نسخة، مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، باعتبارها، في هذا العصر، لغة عالمية.. ثم يأمر بإعداد برنامج متكامل لترتيب جميع الموظفين

العاملين في السياحة، على حسن التعامل مع السيّاح، ومع أبناء الوطن أوّلاً... فما دور وزارة السياحة؟..

لكّن الرجل خيّب ظني.. وعاد – كشأنه في شبابه – يحرّك الأشخاص وكأنهم أحجار شطرنج.. يرفع أقواماً بلا وجه حق، ويضع آخرين بلا وجه حق.. اللّهم إنها الشلليّة، ومحاباة الأنصار الحزبييّن،،! متى يتخلص بلدنا من هذا النمط من الرجال الذي لا يخدم فكر الأمة، ولا ينصر الحق، وإنما يتحكم فيه الهوى، والرغبة في أن يكون في بؤرة الاهتمام ائماً..».

وأعاده إلى النظر إلى الصحراء الممتدة على جانبي الطريق تخفيف السائق لسرعة السيارة بشكل مفاجئ، فقد كان يعبر الطريق أمام لسيارة قطيع من الجمال.. «لماذا هذه الأرض جرداء؟ يمكن أن ينبط ماؤها الجوفي وأن تحوّل إلى جنان؟. إننا – في الأردن بل في العالم العربي عامة.. لا نستطيع أن ننافس في الصناعة ، ولكننا إذا أخلصنا النية نستطيع أن ننافس في الزراعة.. أن نزرع ما يوصلنا إلى حالة اكتفاء ذاتي حتى لا يظّل الأمريكي المؤيد لدولة الباطل عدوّنا، ولوجوده فوق أرضنا. يتحكّم بقوتنا اليومي، فيشل حركة الدفاع والمقاومة لدينا..، ويضعف من قدرتنا على اتخاذ القرارات الحّرة.. أسرعي أيتها السيارة لنصل أهلنا..».

الشاب.. طالب في الجامعة: «.. لابدّ من العمل خلال الصيف في الميناء كما عملت في العام الماضي.. وإلاّ.. فكيف

أتمكن من الدراسة في العام القادم.. أبي فقير لا يملك إلا متجراً صغيراً لا يدرّ عليه إلا ثلاثة دنانير أو أربعة يومياً.. ذات الشعر المصبوغ باللون الأشقر ابتسمت في وجهي، وعندما رأيتها في اليوم الثاني أقبلت عليها محيّياً فرحبت بي، وسارت إلى جانبي ساعة، ولكنها تركتني دون كلمة وداع.. بعد أن عرفت أني فقير لا أستطيع أن أعطيها ما تصبغ به شعرها الذي تكلف صبغته سبعين ديناراً شهرياً، ولا ما تشتري به فساتين، وإلاّ... فمن أين لها أن تشتري به فساتين، وإلاّ... فمن أين لها ما تشتري به من ثياب، تظهر بثوب جديد كل يوم، ولا تكاد تعود إلى ارتداء واحد منها خلال الشهر كله..؟ تجربة استفدت منها.. لن أتقدم إلى خطبة فتاة، في المستقبل، من طبقة أرستقراطية، ترهقني بطلباتها ثم تحتقرني، ولا فتاة من طبقتي ولكنها تعاني من عقدة الارستقراطية، تريد أن تظهر بأنها من الأغنياء.. سأتزوج من ترضى بالقليل، تقدّر ظروفي وتؤمن أن القيمة في الأخلاق، وفي السلوك الحسن...».

ونظر بطرف عينه إلى الفتاة التي كانت تجلس إلى جانبه، ولم يستطيع أن يتفحصها لأن عيون الآخرين تراقبه.. «لا شأن لي بها»، لعلها آتية تبحث عن عمل مثلي.. ولعلّ العمل يجمع بيننا فأتمكن من التحديق بها.. ولكن أيستقبلني أبو محمود؟ أيرحب بي؟ أييسر لي عملاً، كما يسره لي في العام الماضي.. أمي

أوصتني بالاستقامة، والدموع تترقرق في عينها.. أبي قال لي، عندما عرجّت عليه في الدكان، لأودعه: (استودع اللّه دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك.. احترس من شرار الناس، وكن من خيارهم على حذر..)، هذه الفتاة.. حلوة، ولكن منظرها يدل على أنها فقيرة.. من يدري لعل الظروف تجمع بيننا حبيبين ثم زوجين.. الفقر يجمع بين الفقراء، والمصيبة توحدّ بين الناس».

ثم غلبه النعاس..

العامل.. ودّعت أم العيال، وليس لديها إلاّ خمسة دنانير.. كم يوماً تكفيها خمسة دنانير؟ وهل أجد عملاً في العقبة..؟ امتدت البطالة حتى إلى العمال الذين يعملون بأيديهم ويحملون على ظهورهم.. الولد الكبير.. خائب، ترك المدرسة قبل أن يحصل على الشهادة، ولد جاهل، كأنه لا يرى ما أنا فيه، لو تعلمت لكنت موظفاً أقبض راتباً كل آخر شهر.. البنت ذكية ومؤدبة، ولكنها لم تجد عملاً. من سنتين أنهت كلية المجتمع، ولكنها لم تترك بنكاً ولا مؤسسة إلاّ عرضت نفسها عليها.. فلم توفق في عمل! ليتها تجد زوجاً ولكن من يقبل على الزواج من بنات العمّال الفقراء.؟ الزواج.. ستره، ونحن ننتظر الفرج.. الفقير مسكين، والعامل في هذه الأيام مسكين.

العمّال الذين قتلوا في غزة في (عيون قارة).. ينتظرون في مكان تجمع العمّال حتى يأتي من يعرض عليهم العمل بالمياومة..

هم مساكين، فقد ذهبوا ضحيّة الغدر والفقر.. جندي يهودي حاقد.. أطلق عليهم وابلاً من الرصاص كما ذكرت الأخبار، ليس مجنوناً، بل هو حاقد.. ما ذنبهم وقد تركوا عائلاتهم وهم يمنون النفس أن يعودوا في المساء يحملون لعائلاتهم الخبز والبطاطا والشاي والسكر.. وما مصيري أنا؟ أتسقط عليّ رافعة أو شوال مملوء بمادة ثقيلة.؟ يرقني بالأرض.. أم أعود إلى أم العيال أحمل الهدايا والنقود، وأشتري لعبة لابنتي الصغيرة... انتحرت بكاء يوم أمس، رأت بنت الجيران معها عروس، وجاءت تبكي تطلب أن نشتري لها عروساً.. العروس بدينار، ونحن في حاجة إلى الدينار لنشتري به طعاماً.. الطعام أولى من اللعبة.. لن تموت إذا لم نشترِ لها لعبة، ولكنها تموت إذا لم تأكل خبزاً... ربّنا ييسر، إذا وجدت عملاً... فستتغير الأمور..

الطبيب الشاب.. لماذا وجهت أنا دون غيري إلى العقبة؟ لا بأس، العمل في العقبة خير من حياة التسوّل، عامين قضيتهما عاطلاً عن العمل بعد التخرج من الجامعة، كان أبي يصرف عليّ، حتى ثمن الدخان كان يعطينيه! لقد فكّرت أن أفتح محلّ خضر.. خير من أن أظّل عالة على أبي وقد أصبحت رجلاً في السابعة والعشرين أحمل شهادة في الطب العام.. أعتبر العمل في العقبة خدمة للوطن.. هذا حق لو كان التعيين جاء حسب معايير محددّة، كالعلامة أو الأقدمية في التخرج ولكن التعيين ومكان العمل تحكمت به الوساط.

ابن المتعهد الكبير عيّن في أطراف عمان، وابن وكيل الوزراء عيّن في السلط. . . . أما أنا لأن أبي لا يملك إلا متجراً صغيراً فقد عُينت في العقبة. . مع أني أعلى منهما معدّلاً. . حق أن يخدم الإنسان وطنه، بل أن يخدم في أي رقعة من وطنه، ولكن وطنه الذي يعدل بين الجميع. . . الآن عرفت لماذا جعل الإسلام العدل مبدأ رئيسياً من مبادئ التعامل البشري في إطار المجتمع العام. .، أما قال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَومٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ أي في هذا القول حتى بُغْضُ الآخرين يجب ألا. . يحول بين صاحب السلطة وبين العدل مع من يبغض؟ أن الظلم حقد أسود تضيق به النفوس فتتفجر بالغضب العارم الذي يلتهم الأخضر واليابس، وكأنه انفجار الضغط في جسدي. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَذينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (صدق الله العظيم).

الفتاة. . «ما العمل؟ أسبوعاً كاملاً قضيته في بيت خالي في عـمّان، وأنا في كل يوم أطوفّ بعدد من الدوائر والمؤسسات، ولكن لا جدوى. . ديوان الخدمة المدنية. . وهذه إهانة للموظفين إذن، لم يرضوا إلاّ أن يصفوهم بأوصاف الخدم. . . ديوان الخدمة، فالموظف إذن خادم، أما وجدوا كلمة خيراً من هذه الكلمة؟. . ما عليّ، ديوان الخدمة المدنية، موظف فيه يشرف على الجدول ويتكلم من مُنطقة بين الأنف والفم، تعالياً على المراجعين، كأنه ليس خادماً في ديوان خدمة، قال لي: ترتيبي في العقبة. . السادس، ولكن متى تعيّن صاحبة الترتيب السادس في تخصص

الشريعة؟ هيهات.. العقبة لا تعيّن أكثر من اثنين في كل عام يعني هذا أنه عليّ أن انتظر ثلاثة أعوام بطولها.. والشباب في هذه الأيام (وضحكت في سرّها) لا يقبلون إلا على الفتاة الموظفّة.. يا رافع السماوات وباسط الأرض.. لا وظيفة ولا زواج! ابن خالي شاب جامعي في الثلاثين يملأ السمع والبصر.. لماذا لم يتوجه بنظراته نحوي؟ يبدو أنه ينوي الزواج من ابنة ثري.. ثري كخالي، كأبيه، لنا اللّه، وليس لنا إلاّ الانتظار.. يقولون (حقوق المرأة) وهل يطالب بحقوق من لم يحصل على حق العيش، سيد الحقوق؟!».

ونظرت بطرف عينها إلى الشاب الطبيب: «ابن السكيرة هذا.. زوج مناسب، سناً ومنظراً، ولكن من يدري لعله عاطل عن العمل مثلي، لعله آت إلى العقبة يبحث عن عمل! من سوء حظّي أن فرص العمل في العقبة متوفرة نوعاً ما للرجال ولكنها غير متوفرة للنساء... الميناء مجال حيوي، ولكنه حكر على الرجال.. معهم حق وماذا تعمل النساء في الميناء الذي يحتاج إلى سواعد الرجال.

ظلّ كل من الركاب الخمسة يحاور نفسه.. ولم يقطع جوّ الصمت إلاّ صوت السائق يقول: «الحمد للّه على السلامة» وقد وصلت السيارة إلى مكتب «التكسيات» في العقبة.

نزل الركاب الخمسة من السيارة ومضى كل منهم إلى وجهته ولم ينبس بكلمة.. والسائق لم يسمع، رغم انتباهه، على عباردته، رداً من أحمد..!؟